المدخل الى علم التاريخ

دكتور
رأفت غنيمي الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث و المعاصر
وعميد كليه الاداب جامعه الزقازيق

١٤٠٨هـ
١٩٨٧/١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

التاريخ ذلك العلم الذى اختلف حوله كثير من المفكرين حول معناه ومغزاه وفائدته وهل هو علم أو فن أو مجرد أدب قصصي للتسلية وقضاء وقت الفراغ ، وفى الصفحات التالية استعراض لمعنى كلمة التاريخ لغويا وعلميا ، وأصل هذه الكلمة هل هى عربية أم فارسية حيث نحسم الرأى حول معنى كلمة تاريخ أو تأريخ أو توريخ .

وكان الاختلاف حول علم التاريخ كبيرا ، فمن قائل أنه ليس بعلم لأن العلم فى رأيهم يقتصر على العلوم الطبيعية التى تخضع للملاحظة والتجربة واستخلاص القوانين التى تصلح للتطبيق ، بينما التاريخ لا يخضع لمثل ما تخضع له العلوم الطبيعية اذن التاريخ فى رأيهم ليس بعلم .

ويذكر البعض أن تفسير التاريخ علم اسلامى مستندين الى أن القرآن الكريم يمثل مصدرا للمادة التاريخية لكثير من تاريخ الشعوب والرسالات و الأنبياء لايرقى اليه الشك ، واستشهدوا في ذلك ببعض الآيات والسور القرآنية الكريمة التى تبرز أحداثا تاريخية .

ثم يجئ الحديث عن فائدة التاريخ للبشر ، هل هو لمجرد التسلية والاستمتاع به كقصص ، أم له هدفا يسعى لتحقيقه من دراسته ؟ ويوضح الحديث فى هذا الموضوع

أهمية التاريخ من أجل أصالة الانسان فى حاضره وتطلعه الى المستقبل على قدم ثابتة ٠

ويرتبط بأهمية التاريخ وفائدته الحديث عن أهداف دراسة التاريخ ، أى ماذا نحقق من دراستنا للتاريخ ؟ وستوضح الاجابة على هذا التساؤل أن دراسة التاريخ لها أهداف محددة مفيدة لدارس التاريخ فائدة كبرى ٠

ومع توضيح أهمية التاريخ وأهداف دراسته يصبح من الضرورى استعراض مدارس تفسير التاريخ ، فهى على تعددها توضح التطور الفكرى للمؤرخين طبقا للعصور التاريخية ٠

معنى كلمة تاريخ

تعددت الآراء حول معنى كلمة تاريخ ، فمن قائل بأنها تعنى الاعلام بالوقت أو التعريف بالوقت ، أى ارتباط الكلمة بالزمن فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، ولفهم التاريخ ومعنى كلمة التاريخ لابد من فهم الزمن أو الوقت ، فقد كان اليونانيون والرومان مثلا يعتقدون ـ كما كان يعتقد قدماء المصريون ـ أن الزمن يسير ببطء ، فاليوم طويل والسنة طويلة ، يساعد على هذا الفهم والاعتقاد الظروف التى كان يعيش فيها الانسان ، حيث كان الفرد لا يعرف للوقت قيمة ، بينما فى المجتمعات الحديثة يوجد تقدير للوقت لأنه يمتاز بالحركة والسرعة .

وهذا الاختلاف فى النظرة الى الزمن يتضمن اختلافات فى فلسفة التاريخ ، فالذين يعتقدون بأن الزمن بطئ وبسيط تكون فكرة التقدم والتطور عندهم غير واضحة ، بل انهم يعتقدون بأن التاريخ يعيد نفسه . أما الذين يعتقدون بأن الزمن حركة وسرعة فانهم يعتقدون فى التقدم والتطور وفى قيمة الانسان كقوة تملك ذكاء تستطيع تطوير وتحسين ظروف الحياة التى يحياها .

والاعتقاد فى ذكاء الانسان يستند على أن الاحداث غير متطابقة ، أى لايمكن أن تقع حادثة حاضرة مع حادثة ماضية بالضبط وبنفس تفاصيلها ، كما لايمكن أن يكون عصر معاصر مثل عصر ماضى ، أو جيل حالى مثل جيل سابق ، ومن ثم فان

لكل أحداث معاصرة دراسة جديدة وحلولا جديدة ، وهذا يتوقف على فهم الظروف التى مرت بعصور مماثلة فى الماضى لأن الأحداث متسلسلة متصل بعضها بالبعض الآخر .

وقد تعدد القائلون بأن كلمة تاريخ تعنى التعريف بالوقت منهم شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (١) الذى ذكر أن التاريخ فى اللغة الاعلام بالوقت ، فيقال أرخت الكتاب وورخته وأن التاريخ فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت ، وموضوعه الانسان والزمان ، ومنهم محمود بن أحمد الزنجانى (٢) الذى قال ان اشتقاق التاريخ من الأرخ والإرخ ، وآرخ الكتاب فهو مؤارخه . ومن هنا نجد كلمات تاريخ وتأريخ وتوريخ مترادفة . وهذا يشير الى أن لفظ تاريخ عربى الأصل .

وهناك من يذكر أن أصل كلمة تاريخ هو الأصل السامى لكلمة " روح " وهى عبرية معناها القمر ، و " يرح " التى معناها الشهر ، وعلى هذا يمكن القول أن معنى لفظ تاريخ تحديد الشهر ، ثم اتساع نطاق هذا اللفظ فشمل رواية الحدث وتحديد الوقت أو العصر أو التاريخ المدون بحسب السنين (٣)

---

(١) فى كتابه : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٧ .

(٢) فى كتابه : تهذيب الصحاح ص ١٩٩ .

(٣) د. عثمان موافى: منهج النقد التاريخى عند المسلمين وعند الأوروبيين ص ١٧٤ .

كما أن هناك من يذكر أن لفظ تاريخ معرب مأخوذ من لفظة " ماه روز " الفارسية وهذه اللفظة من شقين :

" ماه " تعني القمر و " روز " تعني اليوم ، وقد فسر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي (١) هذه اللفظة الفارسية الأصل بأن الفرس يسندونه الى من غلب عليهم الأكاسرة ، فعربوا لفظة " ماه روز " بمورخ ومصدره التاريخ . كما أن عمر بن الخطاب قال في ذلك : ضعوا للناس تاريخا يتعاملون عليه وتصير أوقاتهم فيما يتعاطونه من المعاملات مضبوطة .

وهناك من يذكر أن كلمة تاريخ يونانية الأصل وكانت تكتب Istoria التى كان يقصد بها في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد بصفة خاصة البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة ألا وهي معرفة البلاد وعادات أهلها والمؤسسات السياسية الماضية أو المعاصرة . وسرعان ما أصبحت كلمة Istoria قاصرة على معرفة الأحداث التي رافقت هذه الظواهر الاجتماعية والسياسية ، ومن ثم ظهر تعبير التاريخ بمعناه الشائع ، وقد أخذ الرومان تلك الكلمة بمعناها ومبناها (٢).

---

(١) في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار ص٦ .
(٢) د. علي أدهم : تاريخ التاريخ ص٦ .

كما أن الفليسوف الرومانى استعمل لفظة Historia بمعنى السرد المنظم لمجموعة من الظواهر الطبيعية . وكلمة تاريخ فى لغتنا العربية هى المقابل لكلمة History فى اللغة الانجليزية ، وكلمة Histoire فى اللغة الفرنسية ، وكلاهما اشتقاق من الكلمة اليونانية Histor بمعنى التعلم أو المشاهدة ، أى كل ما يتعلق بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على الأرض[١].

هذا الى أن لكلمة Histoire الفرنسية معنيان يصعب الفصل بينهما ، المعنى الأول يتمثل فى مجموعة الأحداث التى ظهرت فى الماضى وتظهر فى الحاضر أو سوف تظهر فى المستقبل والتى يصنعها الانسان ، والمعنى الثانى يتمثل فى الالمام بهذه الأحداث ، وهذا المعنى الثانى يعتبر منطقيا بعد المعنى الأول[٢].

---

(١) د. محمد عواد حسين : صناعة التاريخ ، مجلة عالم الفكر العدد الأول ١٩٧٤ ص ١١٥ .

(٢) جوزيف هورس ترجمة نسيب وهيبة الخازن : قيمة التاريخ ص ٩ .

علم التاريخ

ان علم التاريخ هو ذلك الفرع من المعرفة الانسانية الذى يستهدف جمع المعلومات عن الماضى وتحقيقها وتسجيلها وتفسيرها ، فهو يسجل أحداث الماضى فى تسلسلها وتعاقبها ، ولكنه لايقف عند تسجيل هذه الأحداث ، وانما يحاول عن طريق ابراز الترابط بين هذه الاحداث وتوضيح علاقة السببية بينها أن يفسر التطور الذى طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة وأن يبين كيف حدث هذا التطور ولماذا حدث[(١)] .

وعلم التاريخ فى رأى البعض هو وعاء الخبرة البشرية أو هو العلم الخاص بالجهود البشرية أو هو المحاولة التى تستهدف الاجابة على الأسئلة التى تتعلق بجهود البشرية فى الماضى وتستشف منها وجهود المستقبل ، فالتاريخ يتناول أمة من الأمم بالتنقيب فى طوايا فكرها ، ومدى ارتباط ذلك الفكر بالدنيا والحياة ، ثم اتصاله بسيرة الانسان فى الأرض وجهوده المتصلة لرفع شأنه اقتصاديا وعلميا وفكريا ، ومدى ارتباط ماضى الأمم بحاضرها ، وحاضرها بمستقبلها[(٢)] .

---

(١) د٠ عبد الحميد السيد : التاريخ فى التعليم الثانوى ص١٩

(٢) آلبان ويدجرى (مترجم) : التاريخ وكيف يفسرونه - تعليق المترجم .

ان علم التاريخ يشتمل على المعلومات التى يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله بما يحويه من اجرام وكواكب ومن بينها الأرض وما جرى على سطحها من حوادث الانسان ، ولذلك نجد المؤرخ الانجليزى هـ . ج . ويلز H.G.Wells يبدأ كتابه المسمى " موجز تاريخ العالم " بدراسة نشأة الكون والأرض وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة(١).

وقد بدأ التاريخ يظهر الى حيز الوجود فى صورة بدائية أولية منذ أخذ الانسان البدائى من فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطيره ومعتقداته ، وقد أخذ التعبير عن التاريخ يتدرج مختلطا بالفن كالرسم والنقش على الحجر ، ومع تطور الحضارة أخذ التاريخ يشكل أساسا جوهريا فى تسجيل موكب البشرية الخامل .

وهذا يعنى أن علم التاريخ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذى يقدم لنا ألوانا من الأحداث وفنونا من الأفكار وصنوفا من الأعمال والآثار ، وأن التاريخ يتخذ مجراه على يد الانسان بطريق مباشر وفى ظروف معينة ،

---

(١) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ص ١١

والانسان ابن الماضى ، بل هو ثمرة الخلق كله منذ أزمان سحيقة ، والعلاقة وطيدة بين حياة الفرد وبين الحياة فى القرون والعصور الماضية(١) .

وهذا يعنى أيضا أن التاريخ يكمن فى أن الماضى الذى يبحث فيه المؤرخ ليس ماضيا ميتا ولكنه ماض فى بعض الاعتبارات ما زال حيا فى الحاضر ، وان كان الفعل أو الحدث الماضى يعتبر ميتا دون معنى عند المؤرخ ما لم يستطع المؤرخ أن يدرك ويفهم الأفكار التى وراء هذا الحدث ، وعلى هذا يمكن القول أن كل التاريخ هو تاريخ الفكر(٢) .

ويهتم علم التاريخ بدراسة الاحداث أو هو الأحداث نفسها ، والاحداث جمع حادث ، والحادث من وجهة نظر المؤرخ كل ما يطرأ من تغيير على حياة البشر ، وكل ما يطرأ من تغيير على الأرض أو فى الكون متصلا بحياة البشر . وقد يكون الحادث مفاجئا كوقوع زلزال يهدم المدن والقرى ،

---

(١) د. حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ص١٢ ـ ١٣ .

(٢) Carr, E.H.: What is History, P. 22.

وقد يكون عنيفا مثل قيام حرب٠

كما قد يكون الحادث بصينا كعمليات التطور البطيئة التى لا يفطن الانسان الى حدوثها الا على المدى الطويل مثال ذلك تطور المرأة العربية وخروجها من عزلة المنزل الى المشاركة فى الحياة العامة ، فهذه عملية طويلة بدأت من أواخر القرن التاسع عشر ولا زالت مستمرة الى اليوم ، وهى فى مجموعها حادث تاريخى خطير بعيد المدى٠ وقد يقع الحادث دون أن يفطن اليه أحد ثم تتجلى خطورته فيما بعد مثل ميلاد طفل يصبح فى يوم من الأيام قائدا كبيرا أومفكرا عظيما أو سياسيا ماهرا ، أى يصبح من صناع التاريخ(١).

ومهما كانت الأحداث صغيرة أو كبيرة ، محسوسة أو غير محسوسة ، قصيرة الأمد أو طويلة ، فان الذى يجمع بينها هو أن الحال بعد وقوعها يختلف عنه عما كان قبلها ، فالعالم بعد ظهور نابليون بونابرت يختلف عن العالم قبل ظهوره ، والدنيا بعد الحرب العالمية الثانية تختلف عن الدنيا قبل هذه الحرب ، ومصر بعد ثورة ١٩٥٢ تختلف أحوالها عن مصر قبل هذه الثورة ٠

---

(١) د٠ عبد الحميد السيد : المرجع السابق ص٢٠

والتاريخ يشمل الماضى والحاضر والمستقبل معا ، ونحن عندما ندرس الماضى فاننا فى نفس الوقت ندرس الحاضر والمستقبل ، لأننا اذا دققنا النظر تبين لنا ألا شئ فى الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن ، ولا يوجد فاصل بين الماضى والحاضر والمستقبل ، وأن التاريخ يمثل النهر الذى مر على قوم قبلنا فشربوا منه ويمر بنا فنشرب منه ، وسوف يمر على اناس بعدنا ليشربوا منه .

ويعلمنا التاريخ أن لكل زمان ومكان ظروفه وأفكاره وقيمه وأساليبه فى التفكير والعمل ، وأن الجنس البشرى فى تطوره عبر العصور التاريخية قد أدخل تعديلات جوهرية على أساليبه ووسائله فى مواجهة المشكلات ، ودراسة التاريخ توقفنا على جذور المشكلات الحاضرة وتزيد من فهمنا لها (١).

بهذا يمكن القول - مرة أخرى - أن علم التاريخ يعنى كل شئ حدث فى الماضى ، بل هو الماضى نفسه ، أو بعبارة أدق ما نعرفه من هذا الماضى ، واذا كان هناك تاريخ للنبات وتاريخ للحيوان وتاريخ للفن .. الخ ، فان التاريخ المصطلح عليه هو تاريخ الانسان الذى يهتم بدراسة أعمال

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢١

البشر فى الماضى بأفكارهم ومشاعرهم ومخلفاتهم ، أى دراسة لتطور المجتمعات البشرية فى مختلف الجوانب.

والتاريخ اذ يسجل أحداث الماضى وظواهره وتياراته لايهتم بالسياسات الماضية بمعاركها السلمية والحربية فحسب ، ولكنه يتناول الحياة الماضية بجوانبها المختلفة الاقتصادية منها والاجتماعية والعلمية والحضارية والفكرية.

والتاريخ كذلك ليس ترجمة لحياة القادة والحكام والزعماء وغيرهم من شخصيات الماضى العظيمة فقط ، وانما هو دراسة لحياة الشعوب والجماعات ، وان كانت دراسة الشخصيات تعتبر جزءا رئيسيا من الدراسة التاريخية، وذلك لأهمية دورها فى مجريات الأحداث التاريخية ، ولما كان لها من أثر فى حياة الشعوب والجماعات التى نشأت فيها (١).

وهكذا يمكن القول أن التاريخ ليس عبارة عن أحداث مجردة أو سجل يحوى هذه الأحداث والحقائق والوقائع ولكنه عبارة عن خبرات وتجارب حيوية ديناميكية لأناس عاشوا فى وقت ماض لهم مطالب وحاجات وآمال ، حاجاتهم وآمالهم وآلامهم تؤثر علينا إلى اليوم ، كما أن حاجاتنا وآمالنا وآلامنا

---

(١) د. عبد الحميد السيد : المرجع السابق ص٢٢

سوف تؤثر على أبنائنا وأحفادنا .

ففي دراسة موضوع القومية العربية مثلا وتحديدها علميا كفكرة ديناميكية لايمكن فهمها على أنها فكرة مجردة ، لكن لابد من دراستها على أنها فكرة تمثل اتجاها فكريا موجودا في أذهان العرب ، أو نوع جديد من السلوك يسعى العرب للقيام به ، أو نوع من الحياة يريد العرب معايشته ،وهذا يتطلب دراسة ومعرفة وادراك عوامل كثيرة اجتماعية واقتصادية وسياسية وسيكولوجية ، ومن ثم تتم دراسة التاريخ كتطور ديناميكى لأفكار وأنواع من السلوك .

والآن نتساءل هل التاريخ علم ؟

للإجابة على هذا التساؤل نقول إنه حدث اختلاف حول التاريخ وهل هو علم أو فن أو أدب ؟ فنجد العلامة العربى المسلم عبد الرحمن بن خلدون يذكر فى مقدمته المشهورة : اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المنهبجم الفوائد شريف الغاية .. الخ[١] وهو يعنى هنا بالفن العلم الانسانى ،وليس أدل على ذلك من إشارته الى العمران البشرى وكيف حدث وما هى ديناميات حدوثه ؟ .

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون .. المقدمة .

ونجد علماء الطبيعيات ينكرون تسمية التاريخ بلفظة علم تأسيسا على أن الأحداث التاريخية لاتخضع للملاحظة والتجربة ، كما أن كل حادثة تاريخية - وان كانت مرتبطة بما قبلها ومتصلة بما يليها - إلا أنها تعتبر قائمة بذاتها لايمكن أن تتكرر ، هذا إلى جانب أن الدراسة التاريخية لاتوصل إلى تعميمات أو قوانين علمية ، بالاضافة الى أنه لايمكن التنبؤ بمسار التاريخ فى المستقبل ٠

ومع ذلك يمكن القول أن التاريخ علم من العلوم الإنسانية ، حيث يدرس التطور البشرى فى جميع النواحى ، ولذلك لايمكن أن نشبهه بالعلوم الطبيعية التى تدرس ظاهرة واحدة بيولوجية أو فيزيائية أو رياضية ٠٠ الخ ، بينما يدرس التاريخ كل النشاط الانسانى المعاصر بجذوره فى الماضى ٠

ورغم ذلك نستطيع القول بأن الدراسات التاريخية تأثرت بالنزعة الطبيعية ، حيث انعكس منهج العلم الطبيعى على التاريخ فأصبحت خطوات منهج البحث التاريخى على النحو الآتى : -

١- منهج تجريبى استقرائى غير مباشر حيث لايخضع التاريخ للتجريب ٠

٢- حشد مادة تاريخية فيها حصيلة هائلة من الأحداث التاريخية .

٣- حصر الواقعة المراد دراستها زمانا ومكانا حتى يستطيع الباحث أن يستوفيها دراسة .

٤- الوصول إلى أحكام كلية تمكن من الاستفادة بها في الحاضر والمستقبل(١) .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم الذى نزل بلسان عربى مبين نجده قد احتوى على تاريخ الأمم السابقة يسوقها للعظة والعبرة والاستفادة مجيبا عن لماذا حدثت هذه الحادثة وكيف حدثت وما نتائج حدوثها ..

جاء فى كتاب الله سبحانه وتعالى : " الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعض قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير " صدق الله العظيم(٢) . أى أن تاريخ حياة الانسان يمر بثلاث مراحل : المرحلة الأولى مرحلة الطفولة المتصفة بالضعف ، والمرحلة الثانية مرحلة الشباب والرجولة المتصفة بالقوة ، والمرحلة الثالثة والأخيرة مرحلة الكهولة أو الشيخوخة التى تتصف بالضعف حتى نهاية الحياة لهذا الانسان الفرد .

---

(١) د. أحمد محمود صبحى : فى فلسفة التاريخ ص ١٦ .

(٢) سورة الروم : الآية ٥٤ .

وجاء المؤرخون الإسلاميون ليذكروا لنا أن كل ظاهرة أو حادثة تاريخية صنعها الانسان لها ثلاث مستويات : المستوى الأول البداية التى تتصف دائما بالصغر، والمستوى الثانى الذروة التى تتصف بالازدهار والقوة ، والمستوى الثالث النهاية التى تتصف بالضعف والانهيار .

ومع ذلك فان نهاية الحادثة أو الظاهرة بداية لحادثة أخرى وهكذا فكما أن نهاية الانسان الفرد تتمثل فى الوفاة فان الانسان النوع يستمر فى صورة أبناء ذلك الانسان المتوفى فتستمر الحياة .. ونهاية حادثة تاريخية كالثورة الفرنسية مثلا بداية لحادثة أخرى تمثلت فى ظهور نابليون بونابرت على مسرح الحياة الفرنسية والعالمية .

ومن الأمثلة التاريخية التى استفادت من الآية الكريمة التى ذكرناها بداية الدولة العربية الاسلامية بحكومة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة ، ثم ازدهرت حضارة وامتدت رقعة فى عهود الخلفاء الراشدين والخلافة الأموية حتى بلغت الذروة أثناء الخلافة العباسية ، ثم بدأت فى التدهور بانقسام وتفكك سياسى إلى دويلات .

كذلك بدأت دولة محمد على فى مصر صغيرة قاصرة على مصر وحدودها عام ١٨٠٥م ، ثم اتسعت هذه الدولة وقويت بضم

الحجاز والسودان وبلاد الشام خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر ، بعد ووصلت فى اتساعها الى بلاد اليمن وساحل الخليج العربى ، ثم ضعفت نتيجة تدخل الدول الأوروبية ضدها فى نهاية العقد الرابع (١٨٤٠م) من القرن التاسع عشر فتقلصت حتى اقتصرت على كل من مصر والسودان .

ونموذج ثالث يؤكد صحة ما ذكره المؤرخون ، يتمثل هذا النموذج فى دولة الامبراطور نابليون الأول فى فرنسا منذ أن كان قنصلا أول والتى كانت قاصرة على فرنسا وحدها ، ثم اتسعت لتشمل ايطاليا ومصر وبلجيكا والنمسا والامارات الالمانية وأسبانيا وبولندة ، خلال الفترة من عام ١٧٩٧ م إلى عام ١٨١٢م ، ثم انهارت هذه الدولة بسبب موقف الدول الأوروبية الأخرى كانجلترا والنمسا والروسيا وبروسيا ، لتعود إلى حدودها قبل عام ١٧٨٩م .

وقال سبحانه وتعالى فى تطور خلق الانسان أى تاريخ نشأة الانسان : ولقد خلقنا الأنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . صدق الله العظيم(١).

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢ - ١٦ .

وفى هذه الآيات التى تبرز إعجاز القرآن وعظمة الخالق يتضح تاريخ حياة الإنسان الفرد والمراحل التى مر بها منذ كان طينا من تراب وماء حتى أصبح خلقا آخر أى الانسان بصورته وهيئته التى هو عليها الآن ، كما يتضح أن لكل شىء تاريخ فى الماضى ومستمر فى الحاضر ويتجه إلى البقاء فى المستقبل .

كما أن القرآن الكريم احتوى على تاريخ كثير من الشعوب والقبائل ومواقفها من رسالات السماء منذ خلق آدم ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالاتعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما

كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فـــى الأرض مستقر ومتاع إلى حين[١] . صدق الله العظيم .

وإذا كان القرآن الكريم قد سجل تاريخ خلق آدم وسكنه فى الجنة ثم نزوله وزوجه إلى الأرض ، فقد كتب على أبنائـه الصراع فيما بينهم ، ومن هنا كانت الحروب والثورات التى صنعها أبناء آدم خلال تاريخهم الطويل وحتى الآن وهم فـــى صراعهم لعوامل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعيـــــة أو مذهبية إنما يصنعون تاريخهم .

وكانت قصة سيدنا يوسف عليه السلام مؤرخة لعصـــــر تاريخى قديم فى مصر زمن الفراعنة ، وكيف تعرض لمكر إخوته غير الأشقاء حتى وصل مصر وتربى فى بيت أحد الوزراء حتـــى دخل السجن ظلما ثم رفعه الله بحكمته حيث قال : وكـذلـــك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنـــا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . صدق الله العظيم[٢] .. خاصة بعد أن أفتى بكيفية مواجهة السنوات العجاف .

وقصة سيدنا ابراهيم الخليل وولده إسماعيل وولـــــده إسحاق وابنه يعقوب ، كلها تشير إلى تاريخ بناء الكعبـــة المشرفة فى بكة المكرمة وإلى تاريخ العرب العدنانيـــين

---

(١) سورة يوسف الآية ٥٦ .



القصص وسورة الأنبياء وسورة ص وسورة يونس وسورة هود وسورة ابراهيم ، وسورة محمد وسورة الفتح التى تشير الى تاريخ الرسالة المحمدية وكيف لم يدخل المسلمون إلى مكة للحج وعادوا إلى المدينة المنورة بعد الاتفاق مع قريش على أن يدخلوها فى العام التالى حيث قال سبحانه وتعالى : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . صدق الله العظيم(١).

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يمثل مصدرا للمادة التاريخية لايمكن أن يتطرق إليه الشك ، حيث يعرض للأحداث التاريخية موضحا أسبابها وكيفية حدوثها والنتائج المترتبة على حدوثها ، وارتباط النتائج بالأسباب ، والترابط بين الأحداث التاريخية فى الزمن الماضى مع الوقت الحاضر واتجاها إلى المستقبل .

والقرآن الكريم الذى نزل على خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم موجه لخير البشرية من بنى آدم الذين عليهم الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره وعليهم فى نفس الوقت تحكيم العقل فى السلوك لتحقيق الرغبات والمصالح

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٧ .

اليومية ، وبذلك تصنع أحداث التاريخ على يد البشر في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية بما يؤكد قدرة الله سبحانه وتعالى وإمكانات البشر التي وهبها الله لهم ليستخدموها .

فائدة التاريخ

وهنا نتساءل .. هل الدراسة التاريخية مفيدة للانسان ؟ ، ذلك أن البعض يتساءل عن فائدة التاريخ وهل هو ضروري للانسان ؟ ولماذا ندرس التاريخ ، وما جدواه خاصة في العصر الذي نعيش فيه والذي يطلق عليه اسم عصر العلم وعصر الذرة ، وغير ذلك من التعريفات التي تكاد تقتصر على العلوم الطبيعية .

فالمتشككون في قيمة التاريخ يقصرون فهمهم على أن التاريخ هو الماضي وحده دون ربط بالحاضر أو تفسير الحاضر بجذور الأحداث في الزمن الماضي ، والحقيقة أننا إذا قلنا أن التاريخ هو نهر الحياة ، فان هذا النهر متصل السير قبلنا وفي زماننا وبعد زماننا ، واذا تحدثنا عن أننا عندما نكتب التاريخ أننا نسجل التجربة الانسانية ، فان هذه التجربة الانسانية لا زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ على هذا يشمل الماضي والحاضر والمستقبل معاً (١) .

وأننا عندما ندرس الماضي فاننا في نفس الوقت ندرس الحاضر والمستقبل لأننا إذا دققنا النظر تبينا ألاشئ

---

(١) د. حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون . مجلة عالم الفكر ص ٥٣ .

فى الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن ، ففى علم الطبيعة يقولون إن المادة لاتفنى ، وفى علم التاريخ نقول ألا شىء يزول زوالا تاما ، وإنما هى الأشياء نفسها تأخذ مع الأيام صورا شتى ، فلو أنك نظرت إلى صورة نفسك وأنت طفل رضيع وقارنتها بصورتك فى يومك الآن لهالك الفرق ولحسبت أنكما إنسانان مختلفان ، والحقيقة أن هذا الطفل هو أنت فى صورة أخرى ، والفرق الذى تراه هو فعل الزمن .[1]

وعلى هذا نقول أن للتاريخ عدة فوائد تجعل دراسته ضرورية للإنسان ، ولنا فى قول الشاعر سند ودليل على هذا :

ليس بإنسان ولا عاقل　　من لا يعى التاريخ فى صدره
ومن وعى أحوال من قد مضى　　أضاف أعمارا إلى عمره

ومن هنا نقول أن علم التاريخ ضرورى للدراسة الخاصة والعامة ولثقافة الشعوب بصفة عامة[2] . وليس من شك فى أن الاطلاع على أحوال الماضى والحاضر فى حد ذاته ، ذات قيمة مطلقة تكفى من حيث هى للدرس والتحصيل المنزه عن كل دافع أو منفعة ، وإذا كان هدف الإنسانية أن تعيش فلابد لنا من الإستعانة بأى فرع من فروع المعرفة ، ولن يتأتى هذا لو

---

(١) د.حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون . مجلة عالم الفكر ص ٥٤

(٢) د. حسن عثمان : المرجع السابق ص ١٧ .

أننا أهملنا العلم الذى يعرفنا كيف عاش الناس قبلنا ، وهكذا فاننا بالتاريخ نعيش أعمارا كثيرة (١) .

كما أن دراسة علم التاريخ تفيد فى أنها تسد حاجة غريزية إنسانية أساسية تفى بحاجة أصيلة من حاجات البشر الذين يعيشون فى المجتمع ، وضرورة التاريخ تقوم على أنه يقوم للإنسان والجماعة البشرية بوظيفة فعلية ، بمعنى أنه يسد حاجة المجتمع إلى معرفة نفسه ورغبته فى أن يفهم علاقته بالماضى وعلاقته بالمجتمعات الأخرى وثقافتها (٢) .

وليس من شك فى أن الحاجة هى الأساس فى درب العلم والتقديم . وهناك مثل يقول : " الحاجة أم الاختراع " ، وعلى هذا فإن تجميع المعلومات التاريخية بالتدريج وتمثل صور الماضى وأحداثه وذكرياته ، كل هذا يفصح عن أمور مشابهة لحاضره قد تمهد له الطريق وتهديه إلى التقدم إن هو تجنب ما اتضح فى الماضى مخيبا للآمال . إننا لانستطيع أن نعيش وأن نعمل وأن نساير الزمان إلا إذا احتفظنا بالتضامن الوثيق مع الماضى (٣) .

---

(١) د. إسحاق عبيد : معرفة الماضى ص ٢

(٢) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) د. إسحاق عبيد : نفس المرجع ص ٢ .

وهذا يفسر لنا حاجة الإنسان والمجتمع إلى معرفة خبرات الأجداد فى الزمن الماضى التى يستفيد من إيجابياتها فى حاضره وفى تطلعه للمستقبل .

والتاريخ يتضمن شعورا بالعجب من أمر الماضى ، وهذا الشعور وعى إلى حقيقة كأنها عجيبة وهى أنه فى وقت ما مشى قبلنا على ظهر الأرض رجال ونساء أناس حقيقيون مثلنا اليوم تشغل أذهانهم وأفكارهم الخاصة بهم وتحركهم عواطفهم الخاصة بهم وأن هؤلاء الناس قد مضوا جميعا إلى سبيلهم واختفى جيل منهم فى أثر جيل ، وانتهوا تماما كما سنختفى نحن أيضا فى القريب كما لو كنا أشباحا فى الظلام [١] .

كما أن من فوائد التاريخ أنه من أهم مقومات الشخصية ، حيث أن الفهم الصحيح لأحداث التاريخ يعين على بناء الشخصية السوية ووقايتها من الذوبان ، ومن الأمراض النفسية التى تعترضها وتشل طاقتها ، فكما أن الانسان يحتاج إلى ذاكرة فهو يحتاج إلى تاريخ لأن التاريخ هو ذاكرته القومية ، وعلماء النفس يعلمون الاختلال الذى يطرأ على التوازن العقلى والنفسى إذا ما فقد المرء ذاكرته ، فكما يمرض الفرد لفقد الذاكرة أو اضطرابها كذلك تمرض الشعوب لضياع تاريخها [٢] .

---

(١) د. حسين مؤنس : نفس المرجع ص ٥٩

(٢) محمد الطالبى : التاريخ ومشاكل اليوم والغد . مجلة [illegible] الفكر ص ٢٥ .

وإذا تمعنا في عالم اليوم وفرزنا أمم العالم نجد أمما لا تاريخ لها ، ولذلك تشعر بالضياع وتعيش مرحلة صراع وعدم استقرار حيث لم تستفد الأجيال الحاضرة من خبرات الأجيال الماضية ولاتستطيع الأجيال الحالية أن تفاخر بمنجزات أجدادهم القدامى بينما نجد أمما تتباهى بتاريخها الممتد لآلاف السنين وعشرات القرون مستفيدة من خبرات وتجارب الأجيال الماضية في البناء ، ومن ثم لا تكرر في الغالب سلبيات الماضين وأخطاءهم وانما تستفيد من إيجابياتهم .

ولعل أوضح فوائد التاريخ أنه يعنى محاولة وصف الماضي وتفسيره ، وهي المحاولة التي تبذل للكشف عن الأشياء المهمة في الماضي على أساس من شواهد جزئية ماضية ، وهذا هو المقصود بالقول بأن التاريخ ضرورة اجتماعية وبأن التاريخ صناعة [١] .

وهذه المحاولة الإنسانية لوصف الماضي وتفسيره تعيننا على فهم واقعنا ، وأنه لافهم لهذا الواقع ما لم نستعن بنوره الذي لا يعوض ، والفهم الصحيح شرط أساسي

---

(١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٦٠ .

لالتماس الحل الناجح لهذا نحن نعتقد أن التاريخ مدرسة لتخريج الإطارات السياسية ، أو على الأقل أنه لا غنى عنه في تكوين الرجل السياسي الذي بيده الحل والعقد[١].

كما أن للتاريخ أهميته في تكوين الإنسان المثقف ، وأنه ما دام التاريخ مدرسة للبشر وأنه طالما كان البشر يشعرون بالرغبة في معرفة ماضيهم للإسترشاد به فإن قادتهم ومدبري أمورهم أحوج إلى ذلك خاصة إذا تمعنا في القول بأن التاريخ حوار بين الماضي والحاضر[٢].

---

(١) محمد الطالبي : المرجع السابق ص ٢٣
(٢) د. حسين مؤنس : نفس المرجع ص ٦٣ - ٦٤ .



فى فهم الحاضر بشكل أفضل ، وذلك لأن بناء المجتمع الحالى له أصوله فى الماضى ، وكلما تحسنت معرفتنا بهذه الأصول ، أصبحنا مهيئين بشكل أفضل للتغلب على الصعوبات التى تواجهنا .

ومن الخطأ دراسة التاريخ كحقائق منفصلة بعضها عن بعض ، بل وفصل نتائج الحقائق عن مسبباتها ، لأن الماضى كأساس للحاضر يستطيع أن يفسر كثيرا من الأشياء والظاهرات التى تدخل فى دائرة خبراتنا فى الوقت الحاضر ، وهل الحاضر الذى نعيشه سوى عادات وتقاليد وعقائد وأسلوب حياة ونظم اجتماعية واقتصادية وسياسية تكونت فى الماضى وظلت تتطور عبر السنين والأجيال حتى وصلت إلى وضعها الراهن .

ثانيا : توضيح التطور :

حيث أن مفهوم التغير أصبح من المفاهيم السائدة والمسيطرة على مجرى الحياة فى الوقت الحاضر ، و حيث أن هذا المفهوم ليس وليد الحاضر وإنما هو نتاج الماضى ، فان التاريخ يوضح التطور الحادث فى مجتمعاتنا ، كما

يبين حقيقة التغير فى الحياة الإنسانية ، فمثلا من دراسة تاريخ التعليم فى مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر نجد تطورا فى اتجاهات الناس نحو التعليم ، فقد كان الأفراد يتهربون من التعليم المرتبط بالجندية وبالحرب بشتى الطرق بينما نجد الأفراد الذين يعيشون فى الوقت الحاضر يشعرون بالضيق إذا لم يتوفر التعليم أمام أبنائهم .

وتؤكد دراسة التاريخ التى توضح مبدأ التطور أنه ليست هناك حقيقة مطلقة ، ولا يجب أخذ الحادث على أنه مطلق، لأن فلسفة التاريخ المعاصرة تؤمن بالتغير والتطور وتؤمن بعدم وجود حلول منطابقة جامدة لكل المواقف ، فالمجتمعات تختلف بعضها عن البعض الآخر .

وتعتبر دراسة التاريخ التى توضح التطور والتغير غير مرغوب فيها من البعض كالرأسماليين والملوك وبعض الحكام والزعماء والقادة ، لأن الدراسة التطورية للتاريخ تبين العوامل المتعددة التى تحرك الإنسان وتحرك الشعوب فى اتجاهات تحررية ثورية فى أغلب الأحيان ، وعلى هذا تحرم النظم الملكية مثلا دراسة تاريخ الثورات ، كما تحرم النظم

الرأسمالية دراسة تاريخ الثورة الشيوعية .

ثالثا : تقدير قيمة الذكاء الإنساني :

تعتبر دراسة التاريخ ذات صعوبة ناشئة من أنها مادة إنسانية ، الإنسان فيها هو محور الدراسة بتفاعلاته وإيجابياته وسلبياته مع الأفراد الآخرين ، هذا بالاضافة إلى وجود عدة عوامل لها دورها فى أحداث التاريخ وحقائقه كالعوامل الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والمخترعات الحديثة والقيم الدينية والخلقية ... الخ .

ويهتم البعض بدراسة التاريخ مقللين من شأن العنصر الإنسانى فيفسرون مثلا الثورة الصناعية على أساس آلى ، بمعنى أنهم يدرسون الثورة الصناعية التى حدثت فى أوروبا أواخر القرن الثامن عشر الميلادى على أنها ثورة مخترعات ، ولكن هذه الدراسة التى تقلل من شأن العنصر الانسانى فى دراسة التاريخ غير منصفة لأن اختراع البخار وأختراع الآلة وغير ذلك من مظاهر الثورة الصناعية كانت نتيجة للأفكار الانسانية ، أى نتيجة للنظريات والقوانين التى توصل إليها الانسان بذكائه ، أى أن الثورة الصناعية لا يمكن أن تدرس إلا بدراسة الحركة العلمية التى هى نتيجة للذكاء الإنسانى .

وهكذا توضح دراسة التاريخ قيمة الذكاء الإنساني في صنع الأحداث التاريخية ، سواء كانت مظاهر حضارية أو ثورات وطنية أو حروب محلية أو عالمية أو مخترعات حديثة وغير ذلك من الأحداث التاريخية التي هي من صنع الانسان ولفائده الانسان .

رابعا : بيان الاستمرار :

تظهر دراسة التاريخ الاستمرار بين الأحداث والتطورات المختلفة ، فلكل حادثة بداية وذروة ونهاية ، ونهاية هذه الحادثة بداية لحادثة أخرى وهكذا .. ولهذا كان الواجب دراسة الأحداث التاريخية في ضوء علاقتها بعضها ببعض ، ودراسة الأحداث يجب أن توضح الاتجاه الذي تسير فيه هذه الأحداث والعوامل المختلفة المؤثرة فيها ، وهذا لا يمنع من دراسة الحادث في ضوء العوامل المباشرة والظروف المرتبطة به والمؤثرة فيه .

وعلى سبيل المثال عند دراسة حركة النهضة الأوروبية ، يجب دراستها في ضوء الأحداث السابقة لها مع بيان العوامل المسئولة عن ظهور حركة النهضة ، وإبراز مظاهر النهضة وآثارها في أوروبا وخارجها ، وفي نفس الوقت دراستها في ضوء علاقتها بالأحداث والحقائق التالية لها ، وهذا هو معنى الاستمرار .

خامسا : تقييم النشاط الانسانى :

يحدث صراع سيكولوجى وفكرى واجتماعى وسياسى بين الأفراد والجماعات، وهذا الصراع قد يؤدى بالانسان إلى نتائج سوية تقدمية ، وقد يؤدى إلى نتائج غير سوية متخلفة ، ومن هنا تكون دراسة التاريخ من أجل تقييم النشاط الإنسانى وأحداث وحقائق هذا النشاط التاريخى مهمة وضرورية .

وهذه الدراسة التقييمية للظواهر والأحداث تؤدى بنا إلى استخلاص أحكام وقيم ذات فائدة لنا فى دراستنا التاريخية . والأمثلة التاريخية على مستويات الأحداث كثيرة مثل :

ازدهار الحضارة الإسلامية ثم اضمحلالها ، تخلف الوطن العربى وتقدمه .. الخ .. ما أسباب كل ذلك ؟ أى ما أسباب ازدهار الحضارة الإسلامية وما أسباب تخلفها بعد ازدهار ؟ .

ما أسباب تخلف الوطن العربى ، ثم ما أسباب تقدمه بعد تخلف ؟ وما هى العوامل التى يمكن توفيرها الآن والتى يمكن أن تعمل على تقدم الوطن العربى وعدم تخلفه ، وازدهار الحضارة الإسلامية وعدم تخلفها ؟

وبهذا المفهوم تهتم الدراسات التاريخية بتقييم المستويات والأحداث التاريخية (أى النشاط الانسانى) من أجل التقليل من حدوث السلبيات والتمسك بالايجابيات لكى تسير الأحداث التاريخية بالصورة الإيجابية التى تتناسب مع النشاط الإنسانى لفائدة الإنسان .

سادسا : دراسة الحقائق فى ضوء القيم العامة :

تهدف دراسة التاريخ كذلك إلى دراسة الحقائق والأحداث فى ضوء القيم التى تكون الاطار العام الذى تحدث فيه هذه الأحداث ، فعند دراسة ظاهرة المركزية فى التعليم فى عهد محمد على مثلا لابد من إبراز حقيقة أن محمد على لم يكن ينفرد بهذه المركزية سواء فى الإدارة أو التعليم وأن محمد على كان يعبر عن اتجاهات محددة تميز عصره ، وهو عصر تجميع القوى وتركيز السلطات فى أيدى حكومات مركزية ، فقد كان الإمبراطور نابليون الأول فى فرنسا يركز السلطات فى يديه ، وكان محمد على معاصرا له .

سابعا : تكوين النظرة الموضوعية :

تهتم دراسة التاريخ بتكوين النظرة الموضوعية لدى الدارس نحو مجريات الأمور من حوله وذلك من خلال إدراكه أن اختلاف آراء المؤرخين ما هو إلا نتيجة لتحيزهم

العاطفى فى معالجة الأمور والأحداث التى يتصدون لها ، ولهذا يمكن القول أن التاريخ علم تعليلى تعقلى ، حيث أن المعلومات المتصلة به هى معلومات غير مباشرة يسفر ارتياد دخائلها عن قضايا عقلية يمكن أن تنير السبيل أمام أحداث وقضايا الحاضر ، كما أنها تشير إلى الصلة الوثيقة بينه وبين السياسة إذ أن المتعلم يدرك أن التاريخ يصنع وتصاغ أحداثه تحت سمعه وبصره ، وأن معمل التاريخ هو الدنيا التى يتحرك فيها (١).

ثامنا : تنمية الروح الوطنية والقومية :

حيث أن التاريخ يهتم بمشكلات المجتمع المعاصر والأحداث التى تقع فى الزمن الحاضر مع البحث عن جذورها فى الماضى ، فان دراسة التاريخ تيسر للمواطن التحرك والإحساس الإجتماعى ، ويجب الألتفات إلى تنمية الروح الوطنية لا تعنى التغنى بأمجاد الماضى والزهو بتراث السلف الصالح ، ولكنها تعنى الإيجابية والمشاركة والفعل والإنفعال والتأثير والتأثر ، والتى تقوم على أساس الولاء للوطن والإخلاص لأهدافه .

---

(١) د. أحمد اللقانى : اتجاهات فى تدريس التاريخ ص٦٧ .

ولقد أصبحت عملية تنمية الروح الوطنية والقومية أساسية فى برامج الدول فى العصور الحديثة ، حيث أدرك قادة الرأى أن القوة لا تكون فى القوة البشرية للجيوش بقدر ما تكون فى إصلاح ومراجعة المفاهيم العامة للدول وخلق العزة الوطنية والقومية فى نفوس المواطنين(١).

كما يجب ملاحظة أن تنمية الروح الوطنية والقومية لا تعنى حجب الحقائق عن الدارسين أو تزويرها بحجة إظهار قوة وتقدم الوطن أو الأمة ، فعلى سبيل المثال عند الحديث عن فكرة الوحدة العربية يجب ألا تخفى حقيقة أن أول مشروع للوحدة العربية وهو مشروع سوريا الكبرى الذى قدمه عبد الله بن الحسين أمير شرقى الأردن للانجليز عام ١٩٤١م كان ردا على تصريح المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية فى مايو عام ١٩٤١م والذى ذكر فيه بأن بريطانيا ترحب بقيام اتحاد عربى شريطة أن يكون نابعا من العرب أنفسهم ويلقى قبولا من كل العرب.. وإظهار هذه الحقائق يبعد التزوير والمبالغة التى ترجع التحرك الوحدوى العربى إلى الشعور بالوحدة العربية عند العرب.

---

(١) نفس المرجع ص ٦٨ .

كما يجب ملاحظة أن تنمية الروح الوطنية تقوم على تنمية روح الانتماء والولاء للوطن أى للقطر الذى يعيشه الدارس للتاريخ ، بينما تقوم تنمية الروح القومية على تنمية روح الولاء والانتماء للأمة العربية باعتبار أن الوطن أو القطر جزء من أمة أكبر هى الأمة العربية تربطها فكرة القومية العربية .

تاسعا : تنمية فكرة التفاهم العالمى :

تهتم دراسة التاريخ بتنمية فكرة التفاهم العالمى بين شعوب الأرض ، وهذا يتطلب دراسة أساليب معيشة هذه الشعوب وآمالها ومشكلاتها ، ودراسة ما حققته ومدى إسهامها ومشاركتها فى ترقية الثقافة البشرية ، وتنمية الإحساس بالتعاطف مع الآخرين والتعاون معهم فى سبيل تطوير حياة البشر مع الإيمان بعدم وجود تعارض بين تنمية الروح الوطنية والقومية وبين تنمية فكرة التفاهم العالمى حيث أن التاريخ الوطنى والتاريخ القومى جزء من التاريخ العالمى يتأثر به ويؤثر فيه[1].

---

(١) نفس المصدر ص ٦٩ .

فعلى سبيل المثال إذا ارتفعت أسعار البترول في أقطار الشرق الأوسط أثر هذا الارتفاع على معيشة شعوب أوروبا وبالتالي أدى إلى ارتفاع الأسعار العالمية للسلع المصنعة ٠ كما أنه إذا حدثت مأساة كالجفاف الذى حدث بأفريقيا في عام ١٩٨٥م كان هناك موقف عالمى لمعالجة هذه المأساة ، وبالمثل مأساة زلزال المكسيك فى سبتمبر ١٩٨٥ الذى أوجد تعاطفا عالميا ٠

وفكرة التفاهم العالمى تقوم على مسلمة أن كل شعب من شعوب الأرض لا يستطيع مهما كانت قوته وثروته أن يعيش منعزلا عن بقية شعوب العالم ، فعلى سبيل المثال لا تستغنى الولايات المتحدة الأمريكية عن بترول الشرق الأوسط وإلى أسواق الأقطار الأسيوية والأفريقية لتصريف السلع الأمريكية ٠٠ وهكذا ٠٠

مدارس كتابة التاريخ

تعددت مدارس كتابة التاريخ نتيجة لأفكار المؤرخين وفلاسفة التاريخ بحيث أصبحت كل مدرسة تعبر عن وجهة نظر أو نظرية فى كتابة التاريخ ، ونسوق فيما يلى أهم هذه المدارس التى كان لها - بدون شك - أثر على المؤرخين العرب .

١- المدرسة الكلاسيكية :

وتقوم فكرة هذه المدرسة على اعتبار الملك أو الحاكم هو صانع الأحداث التاريخية ، ومن ثم فان تاريخ أى قطر إنما هو تاريخ ملك أو حاكم هذا القطر فيكتب التاريخ عن أعمال الملك الداخلية والخارجية .

وأصحاب هذه المدرسة من اليونان والرومان يعتقدون أن موت الملك واعتلاء ملك جديد للعرش يعنى تغييرات أساسية فى تاريخ بلاده ، ويعتبر متشينكوف Mitchinkov رائدا من رواد هذه المدرسة حديثا ، وقد سجل فى كتابه " طبيعة الإنسان " عام ١٩٠٣م أن التاريخ يدور بصورة جوهرية حول الأفراد ، ومعنى تاريخ كل فرد لايتم إلابممارسة الفرد للاشباع فى أثناء قيامه بالوظائف التى تشكل معيشته[1].

---

(١) ألبان ج . ويدجرى (مترجم) التاريخ وكيف يفسرونه

والواقع غير ذلك ، فان التاريخ ليس ترجمة لحياة القادة والحكام والزعماء وغيرهم من شخصيات الماضي العظيمة فقط ، وإنما هو دراسة لحياة الشعوب والجماعات ، وإن كانت دراسة الشخصيات تعتبر جزءاً رئيسيا من الدراسة التاريخية ، وذلك لأهمية دورها في مجريات الأحداث التاريخية ، ولما كان لها من أثر في حياة الشعوب والجماعات التي نشأت فيها (١).

٢- مدرسة العناية الالهية :

سادت فكرة العناية الالهية معظم الحضارات الانسانية منذ القدم بقدر دور الدين في هذه الحضارات ، فعلى سبيل المثال نجد أن المصريين والبابليين والآشوريين والأكاديين واليونانيين والرومان الأقدمين آمنوا بأن الإنسان جزء من الكون ، ومن ثم تسري عليه ما يسري على الكون من قوانين.

على أن بني إسرائيل قد خالفوا هذه الشعوب باعتقادهم أن اليهودي وحده دون سواه أصبح له وضع متميز في الكون ، حيث أصبح عالمه مظهر لعناية الله ، وأن هذه العناية مقصورة على شعب الله المختار ، وأن أحداث التاريخ لاتتكرر ولا تتعاقب ، ولكنها تتخذ مسارا مستقيما

---

(١) د. عبد الحميد السيد : التاريخ في التعليم الثانوي ص ٢٢ .

لتستكمل هدف " يهوه " بالعودة إلى أرض الميعاد ، أى أن "يهوه " يتدخل فى وقائع التاريخ من أجل شعبه المختار (١) .

هذا فى الوقت الذى يسلم فيه المؤرخون اليونانيون والرومان بوجود قوة إلهية مقدسة لكنها لاتتدخل فى مجرى التاريخ بحيث توجهه توجيها جبريا ، إنما هى إرادة عليا فيها تمييز ودعم لإرادة الإنسان الحرة ، وتلك هى الفلسفة الإنسانية التى اعتنقها المؤرخون فى العصرين اليونانى والرومانى (٢) .

وبعد ظهور المسيحية اتخذت نظرية العناية الالهية طابعا مسيحيا ، وحسب المفهوم الكنسى فان النشاط الإنسانى تسيره دائما العناية الإلهية ، وما جميع أعمال الإنسان إلا أدوات فى تنفيذ المشيئة الالهية ، وعليه فان عقلية العصور الوسطى الكهنوتية قد أعفت الإنسان من مهمة صنع تاريخه وترك الأمر كله لله ، وذلك توافقا مع التسليم الكاثوليكى بالمقدر والمكتوب (٣) .

---

(١) د. أحمد صبحى : فى فلسفة التاريخ ص ١٦٧ .
(٢) د. اسحاق عبيد : معرفة الماضى ص ١٨ .
(٣) د. محمد عواد حسين : صناعة التاريخ ، مجلة الفكر ص ١٢٦ .

وبالنسبة للعقيدة الإسلامية فإنه مع إيمان المسلمين بالمشيئة الإلهية ، ومع أن بعض الفرق والمذاهب الإسلامية كالمعتزلة وطوائف الصوفية قد فصلوا القول فى العناية الإلهية كعقيدة ، ومع أن فرق الشيعة التى تؤمن بالمهدى المنتظر كعقيدة تشكل أملا لايقل عن أمل اليهود فى أرض الميعاد ، مع ذلك كله فان هذه الطوائف والفرق الإسلامية لم تقدم نظرية العناية الإلهية مطبقة على التاريخ ، وبالتالى لاترقى إلى أن تكون فلسفة للتاريخ(١).

وخير مثال لمؤرخى مدرسة العناية الإلهية كانت أوغسطين Saint Augustine وجاك بوسيه aque Posseit فى الجانب المسيحى ، وجماعة إخوان الصفا وخلان الوفا فى الجانب الإسلامى .

وهكذا يمكن تعريف العناية الإلهية - كما ذكرها أصحاب المدرسة - بأنها تقوم على مبدأ يعطى الله كل الفعل فى الأحداث التاريخية ، ويعفى الإنسان من صنع تاريخه ، بمعنى أن الأحداث والظواهر التاريخية تخضع لمشيئة الله وحده دون تدخل من الإنسان المخلوق الذى عليه أن يسير دون اختيار فى حياته ، فهو مسير وليس مخير .

---

(١) د . أحمد صبحى : المرجع السابق ص١٦٨ .

٣- مدرسة التطور الحضاري :

تقوم مدرسة التطور الحضاري على تشبيه الدولة بجسم الكائن الحي ، وكما أن الكائن الحي يولد ويعيش ويبلغ أشده ثم يشيخ ويضعف حتى يموت ، ولا سبيل إلى الفرار من هذه الحلقات المتتالية إلا إذا مات قبل أن يكملها ، فكذلك الدولة تولد ثم تمر بنفس مراحل العمر إلى أن تشيخ وتموت ، إلا إذا فاجأها عدو أو كارثة تقضي عليها قبل أن تكمل دورة العمر .

ويعتبر العلامة عبد الرحمن بن خلدون الرائد الأول لهذه المدرسة ، حيث اعتبر المجتمع كائنا تاريخيا يتطور وفق قوانين خاصة به ، وهي قوانين يمكن ملاحظتها وتحديدها ، وذلك عن طريق دراسة مجموع الظواهر الإجتماعية(١) ، وفي ذلك يقول : إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لايدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار ، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ، سنة الله التي خلت في عباده(٢) .

وهذا يعني - عند ابن خلدون - أن الحياة الاجتماعية متطورة لاتقف ، ودوام الحال من المحال كما يقولون ، وأن كل يوم

---

(١) د. زينب الخضيري : فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ص ٧٤ .

(٢) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة .

يحمل هينا جديدا لأن المجتمع ليس جامدا بل متحركـــــا ، أى ديناميكيا ، ويمر بمراحل ثلاث هى : مرحلة البـــداوة أو الفطرة ، ومرحلة التحضر أو الإزدهار ، ومرحلة التدهـــور أو الانهيار .

كما أن هناك روادا آخرين لمدرسة التطور الحضارى منهم فيكو Vicko الإيطالى وهيرور Hurder الألمانى ، وشبنجلـــر Shpengler الألمانى أيضا وصاحب القول : إن المجتمعات ليست سوى كائنات عضوية لأنها تمر بذات الأدوار التى يمر بها الكائن العضوى(١) .

ومن رواد هذه المدرسة كذلك ميلر Miller الذى اتفـــق مع كوهار فى القول : يأتى الإنسان ثم يذهب ، نمو ، نهضـــة ، انهيار ، وهـذا هو كل التاريخ(٢) . والمؤرخ كوهار Kochhar القائل : إن تاريخ الإنسانية كعملية نمو الإنسان عبر الأزمان(٣) .

---

(١) د. أحمد حسين اللقانى : اتجاهات فى تدريس التاريخ ص ٥٩ .

(٢) Kochhar, S.K.: The Teaching of History, P.1.

(٣) Ibid, P.2.

٤- مدرسة التقدم

تقوم مدرسة التقدم نتيجة للفعل الانساني على مقدرة الإنسان على أن يتم من الانجازات ما يمكنه من أن يستبدل بالفردوس الأخروي فردوسا علمانيا دنيويا ، فالحياة في باريس ولندن وروما أفضل عند فولتير - أحد أصحاب هذه المدرسة - من جنة عدن ٠

وقد جعل أصحاب هذه المدرسة كل شيء موضع نقد وفحص وإعمال العقل في كل ما يعرض لهم ، ولم يتعصبوا لحضارة بعينها أو ديانة معينة أو شعب دون سواه أو عصر معين دون سائر العصور أو قومية محددة دون غيرها ٠ وهم يدعون إلى علمنة كل نواحي الحياة البشرية والفكر الإنساني ، حيث يعتقدون أن بعض أنماط النشاط العقلي بدائية مقدر لها الزوال عندما يكتمل نضوج العقل(١) ٠

وقد سادت أفكار أصحاب هذه المدرسة في عصر التنوير العقلي في القرن الثامن عشر الميلادي ، تلك الأفكار القائمة على أن التاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عن تقدم العقل البشري ، وأن وحدة الدراسة التاريخية هي الحضارة ٠

---

(١) د٠ إسحاق عبيد : المرجع السابق ص ٥٣ ٠

وتقوم تلك الأفكار أيضا على أن النظم الإجتماعية والمجتمعات الإنسانية ذاتها تقدمت أو هي تتقدم بالضرورة من حالة التأخر والبدائية إلى التحضر والتمدين مرورا بمراحل معينة يختلف عددها وخصائصها من عالم لآخر ، ولكنها تتفق كلها في أن المرحلة اللاحقة فيها تكون أعلى من السابقة وأكثر منها رقيا وتقدما ، كما أنها تهيء الفرصة لقيام مرحلة أرقى منها هي ذاتها ٠

وينقسم أصحاب مدرسة التقدم المستند للفعل الإنساني إلى فريقين على طرفي نقيض هما :

أ - الفريق الأول يدين بفكرة تراجعية في تفسير أحداث الماضي ومؤداها أن التاريخ الماضي يمثل قوى اللامعقول ، ويمثل هذا الفريق كل من ڤولتير Voltaire ومونتسيكو Montesquedux ، وإدوارد جيبون E.Gipon .

ب- الفريق الثاني يدين بفكرة مستقبلية تتطلع إلى الأمام على أمل سيطرة العقل ، على النشاط البشرى ، ويمثل هذا الفريق الكاتب الفرنسي كوندورسيه Condorcet

ويؤخذ على أصحاب مدرسة التقدم المستندة للفعل الانساني أنهم لم يحاولوا فهم الماضي في ضوء الماضي وإنما في ضوء أحكامهم وقيم مجتمعهم الذى يعيشونه ، إذ الواجب على المؤرخ

أن يتغلغل فى سياق أحداث التاريخ متعايشا معها مدركا طابعها الفردى محاولا الكشف عن باطن مسارها ، كما عليه أن يفسر الأحداث التاريخية فى ضوء ظروف العصر الذى حدثت فيه وأحكام وقيم المجتمع الذى عاش هذه الأحداث (١).

ومعظم أصحاب هذه المدرسة يؤكدون على حتمية التقدم الذى يقوم على أساس أن الحياة تتكون من البسيط إلى المركب إلى الأكثر تركيبا طبقا لقانون حتمى ، وتلقفها عنهم المختصون فى مجال الدراسات الإجتماعية ، فذهبوا إلى القول بأن الصفة الغالبة على سير الحضارة هى التقدم ، وأن التدهور ليس إلا حالة استثنائية عارضة ومؤقتة وأن الحياة تسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من التقدم والرقى (٢).

٥- المدرسة التوفيقية :

أبرز رواد هذه المدرسة الفيلسوف الألمانى عمانويل كانط Immanuel Kant الذى جاءت أفكاره كما لو كانت توفيقا بين مدرسة العناية الإلهية التى ترجع مسار التاريخ إلى عناية الله بالرغم من عبث الإنسان و شروره ، تلك المدرسة

---

(١) د. أحمد صبحى : المرجع السابق ص ١٩٢ .
(٢) محمد رشاد خليل : المنهج الاسلامى لدراسة التاريخ وتفسيره ص ٧٩ .

التى سادت أفكارها حيث ساد تمجيد الإنسان خلال عصر النهضة وعصر التنوير العقلى .

وجاءت أفكار كانط التوفيقية دون قصد منه ، فهو من ناحية يسلم بعبث الإنسان وشروره حيث تصدر أفعاله عن غرور وطمع الأمر الذى جعل الحروب أمرا لامفر منه وأصبح السلام الدائم متعذرا ، ومن ناحية أخرى اعتقد أن هذه الحالة من عدم الإستقرار هى نفسها وسيلة الطبيعة من أجل تقدم الإنسان .

ويفسر عمانويل كانط أفكاره فى النقاط التالية :-

أ - يأمل الإنسان فى السلام ولكن الطبيعة تعرف أن صالحه فى الحرب - أى عدم السلام - .

ب - يرغب الإنسان فى الحياة الهادئة المستقرة ، ولكن الطبيعة تفرض عليه أن يكد ويشقى من أجل تقدمه الخلقى والفكرى .

جـ - لاتعبأ الطبيعة بسعادة الفرد ، لقد جعلته كائنا يضحى بنفسه ويحطم سعادة الآخرين ولكن فى هذا التحطيم أداة الطبيعة ذاتها لتحقق هدفها فى الإنسان وهو تقدم النوع الإنسانى [١] .

---

(١) د. أحمد صبحى : المرجع السابق ص ١٩٨ .

وقد فشل كانط فى أن يقدر نواحى التاريخ الدينية والخلقية والجمالية حق قدرها ، ولم يعر أحداثه ولا عظماءه إلا أقل التفات ، كما أنه وصف أحداث التاريخ بأنها فى كثير من الأحيان تثير قدرا معينا من الاشمئزاز .

ويبرر كانط حكمه هذا بقوله بأنه على الرغم من جميع ما يبدو بين الحين والآخر متناثرا هنا وهناك من دلائل الحكمة ، لايسعنا إلا أن ندرك أن المجموعة الكاملة لهذه الأعمال إن هى إلا نسيج الحماقة أو غرور أطفال أو حتى من الشر وروح التدمير الطفولى(١).

وكان لموقف كانط هذا من التاريخ رد فعل لدى المؤرخين الذين لايؤمنون بأن يكون للتاريخ هدف يتخطى نطاق الحاضر إلى المستقبل ، وقد قلل من نقد المؤرخين لكانط أنه برر أهمية وجدوى التاريخ لأنه بفضل العملية التاريخية تتمكن البشرية من الوصول إلى كمال العقل .

---

(١) آلبان ج . ويدجرى : المرجع السابق ص ١٥٦ .

٦- المدرسة الديالكتيكية المثالية :

تنسب هذه المدرسة للمؤرخ الفيلسوف الألماني جورج ويلهلم فريدريك هيجل G.W.F.Hegel وتقوم على فكرة أن الأحداث التاريخية تكمن وراءها إرادة مخططة ، ومن ثم فهي ليست وليدة الصدفة ، وأن الفكر أساس كل ما هو موجود ، والأفكار والآراء هي التي تسير التاريخ ، فالنهضة الأوروبية قامت على أساس أفكار النابهين في غرب أوروبا ابتداء من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، كما أن الثورة الفرنسية الكبرى - التي اشتعلت عام ١٧٨٩م- إنما قامت متأثرة بآراء المفكرين الفرنسيين الذين يمثلون عصر التنوير العقلي(١).

كما أن تاريخ العالم بكل حقبه وأحداثه المتغيرة غير الجامدة ما هو إلا عملية تقدم وتحقق للروح ، والروح عند هيجل تعني العقل أو الفكر الذي يسيطر على الكون أو يحكم العالم(٢).

هذا إلى جانب أن كل عصر من العصور التاريخية يمثل وحدة زمنية مستقلة بكل أبعادها الدينية والفلسفية

---

(١) د. حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون ، دراسة في علم التاريخ ص ٨٥ .

(٢) محمد علي محمد وعلي عبد المعطي : السياسة بين النظرية والتطبيق ص ٢٢٠ .

والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وهذه الأبعاد التي يسميها هيجل " الكل الحي " والذي يمثل عصرا من العصور التاريخية يحوي في طياته تناقضات تتعايش معا فترة من الزمن ، ثم تتولد عنها فكرة أو كل حي جديد يمثل عصرا جديدا يناقض العصر الذي قبله ، وهذا العصر الجديد يتولد عنه عصر آخر له روح مغايرة ، وهكذا دواليك ، وأن المحرك لذلك كله ليست إرادة الانسان وإنما الروح الكلي أو العقل الكلي المسيطر على العالم(١) .

لذلك يرى هيجل أن الجدل هو مبدأ الحياة كلها ، وأن التاريخ يمثل مفاهيم متناقضة على الدوام تؤدي إلى ظهور مفاهيم جديدة ، ومن ثم فان الفكرة الرئيسية عند هيجل هي فكرة عقلانية التاريخ .

ويذكر هيجل أن فهم العالم ميسور ، فالعقل يكمن في بواطن الأشياء مهما يكن من اختلاف مظهرها الخارجي ، وإذا فقد الإنسان إيمانه بقيم الحياة الإنسانية سارت المدنية في طريق الاضمحلال ، لأن الحياة صرح محكم البناء من الحقيقة ، وفي وسع الإنسان أن يفهم هذه الحقيقة بقوى عقله إن عجز عن إدراكها

---

(١) عبد الرحمن عبد الله الشيخ : المدخل إلى علم التاريخ ص ١٥٢ .

بقوى حواسه ، والعقل نوعان : عقل عملى يعالج الأعمال اليومية ويفكر فى الأشياء المحسوسة ذات الوجود الملموس ، وعقل مجرد يعالج الأفكار التى تجاوزت وجودنا الحسى (١).

وقد حدد هيجل المناهج التى يكتب بها التاريخ فى ثلاثة فقط هى (٢) :-

أ - التاريخ الأصلى : ويعنى به التاريخ الذى يكتبه المؤرخ وهو يعيش أصل الأحداث ومنبعها ، فهو ينقل ما يراه أمامه أو ما سمعه من الآخرين المعاصرين له كما هو وخير مثال لذلك المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى فى تأريخه للحملة الفرنسية على مصر والشام والسنوات الأولى من عصر محمد على حتى عام ١٨٢٢م .

ب - التاريخ النظرى : ويقصد به هيجل ما يقوم به المؤرخ حين يعرض لتاريخ أمة من الأمم أو عصر من العصور يجاوز عصره ، فيقوم بجمع المادة التاريخية وتصنيفها ، وتبدو فى هذا النوع من التاريخ طريقة المؤرخ وأسلوبه فى عرض الوقائع وتفسيره لأسبابها .

---

(١) هيجل (مترجم) : محاضرات فى فلسفة التاريخ ص٣٥ - ٣٨ .

(٢) نفس المرجع ص٤٠ - ٥٤ .

جـ - التاريخ الفلسفي : ويعني به هيجل دراسة التاريخ من خلال الفكر ، لأن التاريخ هو تاريخ الانسان والفكر جوهري بالنسبة إليه ، فهو الخاصية التي تميزه عن الحيوان . خاصة أن ما يميز البشر بحق هو الفكر أو الوعي أو العقل أو الروح ، وأن التاريخ الحقيقي للانسان لايبدأ إلا مع ظهور الوعي .

ونتيجة للجانب المثالي في نظرية هيجل كثر أنصاره وقدموا تعريفات عدة للتاريخ من واقع هذه النظرية ، ومن هؤلاء المؤرخ الانجليزي هـ . ج . ويلز H.G.Wells الذي ذكر أن تاريخ الإنسانية يكمن في التاريخ الجوهري للأفكار (١).

ويؤخذ على أفكار هيجل قصر حقل الدراسة التاريخية على النظم السياسية وتمجيده للحضارة الجرمانية ، وكأن دعوته تلك هي البداية للشعور الألماني بالتعالي والعنصرية الذي جلب الكوارث فيما بعد على الألمان والبشرية جمعاء (٢).

كما يؤخذ على أفكار هيجل كذلك أنها بلغت الذروة في التجريد إلى حد لم يصبح للمادة التاريخية فيها إلا أضيق مجال . وقد جعل ذلك نظرية هيجل تفتقر إلى المادة التجريبية

---

(١) Kochhar, S.K.: op .cit. P.1

(٢) د. إسحاق عبيد : المرجع السابق ص ٨٣ - ٨٤ .

وإلى الحقيقة الموضوعية سواء فى أحكامه على الشعوب أو فى تصوره لمسار التاريخ إذ تجاهل حضارات بأكملها أو أبخس من دورها لمجرد أفكار مسبقة(١).

٧- المدرسة المادية :

يعتبر كارل ماركس Karl Marx الفيلسوف الألمانى أظهر رواد هذه المدرسة ، فيذكر أنه أمسك بديالكتيك هيجل ثم قلبه رأسا على عقب باعتبار أن ديالكتيك هيجل يبدأ بالفكر ويتدرج إلى الطبيعة ، أما ماركس فانه ينادى بالعكس تماما ، إذ التاريخ عنده هو الأعمال التى عبر بها الانسان عن أفكاره وأن فصل التاريخ عن التاريخ الطبيعى والصناعة هو بمثابة فصل الروح عن الجسد .

ويضيف كارل ماركس أن الطبيعة هى المنبع الذى تشتق منه بيئة التاريخ وهى التى أملت ضرورات منها الظاهر ومنها الكامن فأيقظت العقل ونشطته ليأخذ فى تعمير عالم الطبيعة وفهم أسرارها ، بعكس هيجل الذى يرى أن المنطق هو الذى يحدد البيئة التى يتم فيها أداء هذا العمل(٢) .

---

(١) د. أحمد صبحى : المرجع السابق ص ٢١٥ .

(٢) د . إسحاق عبيد : المرجع السابق ص ٨٤ - ٨٥ .

فكل شئ في نظر ماركس يتضمن نقيضه ، بحيث أن كل شــيء يهدم نفسه وهذا هو التصور العام لمبدأ النقيض ، ولكن ماركس يستخدمه للتدليل على وقوع انهيار الجماعات التى قامــت على الرأسمالية ، فالجماعات السابقة لها وهى دول الملكيـــات المطلقة الوراثية والطبقة الإقطاعية الزراعية انهارت فى رأى ماركس لأنها تضمنت عنصر النقيض ، وعلى هذا الأساس ستنهــار الرأسمالية وتتحول إلى النقيض وهى الإشتراكية ذات الطبقــة الواحدة (البروليتاريا)[١].

وعلى هذا فإن التاريخ الإنسانى هو تاريخ الصراع الناشب بين الطبقات الإجتماعية وأن هذا الصراع حتمى ، وليس له حــل إلا بثورة عنيفة[٢]. لأن القوى الحقيقية التى تحكم التطــور التاريخى فى جميع حالاته تأتى من تحدد سلوك الإنسان وهــو يتصرف متأثرا ببعض الدوافع الاقتصادية ، وأن الحالـــة الإقتصادية هى التى تحدد بصفة قاطعة النظم الأخلاقية والدينية والإجتماعية والسياسية .

(١) سيد قطب : خصائص التطور الإسلامى ومقوماته ص ٨٠ - ٨١ .
(٢) إميل ربيه (مترجم) : اتجاهات الفلسفة المعاصرة ص ١٠٠ .

ويضيف ماركس بأن التغيرات الاجتماعية التى تطرأ على المستويات الأخلاقية والثورات السياسية ما هى إلا نتائج لتغيرات فى العلاقات الاقتصادية ، وهذه بدورها تنشأ من عدم انسجام وسائل الإنتاج مع طرق التوزيع ، وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت النظم الإجتماعية غير متلائمة مع النظم الإقتصادية ، كما أدى إلى قيام نوع من التوتر الإجتماعى الذى ينتهى عادة بقيام ثورة تصحح فى ظلها الأوضاع القائمة(١).

ويؤخذ على أفكار هذه المدرسة وأصحابها إلى جانب كارل ماركس كل من " مالتوس" Maltous ، وريكاردو Ricardo ، وإنجلز Angles ، التفسير التعسفى للمادية التاريخية ، حيث أن الرأى السائد فى ميدان الظواهر الاجتماعية أنه لايوجد سبب مستقل منفصل يولد النتائج والأحداث ، وإنما هناك عوامل متعددة وأسباب شاملة تؤثر فى صنع الأحداث التاريخية .

وعلى الرغم مما تناولته المادية التاريخية عند كارل ماركس من قضايا مثل الحتمية التاريخية والتطور التاريخى والصراع الطبقى ، بهدف دراسة علمية للتاريخ باعتباره عملية واحدة تحكمها قوانين محددة رغم تنوعها الهائل وتناقضاتها(٢) .

---

(١) د. مصطفى الخشاب : النظريات والمذاهب السياسية ص٢٦٠ .
(٢) عمارة نجيب : الإنسان فى ظل المذاهب الوضعية ص١١٥

إلا أن نظريته فى تفسير التاريخ جاءت بعيدة عن عملية التاريخ . حيث أهملت العوامل القومية والعقائدية والنفسية والروحية وغيرها ، وحيث أن أصحاب هذه المدرسة لم يأخذوا التاريخ كله كنموذج يستنبطون منه قانون حركته ، وإنما اختاروا بضع مراحل وأحداث هى التى وجدوا فيها مصداق كلامهم وأهملوا الباقى ، وما كان لأحد أن يحيط بالتاريخ كله ولو أراد[١] .

٨ - مدرسة التحدى والاستجابة :

صاحب هذه المدرسة هو المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى Arnold Toynbee والذى يرى أن التاريخ ما هو إلا فحص ودراسة للنشاط البشرى فى حركته وتطوره ، وأن حضارة أية دولة تبدأ بالنمو فالازدهار فالانهيار .

ويعنى التحدى وجود ظروف صعبة تواجه الإنسان فى بناء حضارته ، وعلى قدر استجابة الإنسان لهذه الظروف تكون استجابته إما ناجحة إذا تغلب على هذه المصاعب أو استجابة فاشلة إذا عجز الإنسان عن التغلب على هذه الصعاب .

---

(١) مصطفى محمود : الماركسية والاسلام ص ٢٨

ويذكر أرنولد توينبي أن الظروف الصعبة التي تتحدى قدرة الإنسان وتستحثه على العمل لتكوين الحضارة تتمثل إما في بيئة طبيعية أو ظروف بشرية على النحو الآتي :-

أ - بالنسبة للبيئة الطبيعية فإنها تستحث - خاصة إذا كانت بيئة قاسية - الإنسان على تغيير موطنه أو تعديل بيئته ، إذ الأرض الشاقة والموطن الجديد يشكلان تحديين يستثيران قوى الإبداع في الإنسان ، أما الذين عزفوا عن تغيير موطنهم أو تعديل طريقة معيشتهم ، فإن الانقراض هو جزاء إخفاقهم في الإستجابة لتحدى الجفاف .

ب - وبالنسبة لتحدى الوسط أو الظروف البشرية فيتمثل في عدوان خارجي من دولة مجاورة أو جماعة بشرية قد يتخذ العدوان شكل غزو خارجي أو قد تكون تهديدا مستمرا يشكل قوة ضاغطة على المجتمع ، وعلى سبيل المثال فإن غزو الحضارة الهيلينية أدى فيما بعد إلى ازاحة الإسلام لها من سوريا ومصر ، ثم القضاء على الدولة الرومانية الشرقية(١).

جـ - وفي إطار الظروف البشرية أيضا نجد حافز القصاص الذي يولد بدوره شرارة الحضارة ، بمعنى أن الجماعة التي تتعرض للعقاب أو القصاص من جانب جماعة أخرى تحاول

---

(١) د. أحمد صبحي : المرجع السابق ص ٢٦٩ .

التعويض عما أصابها من خطر بابتكار أساليب جديده لفرض وجودها وإثبات كيانها تماما ، مثلما يحدث فى حالة الانسان الفرد الضرير الذى يجاهد حتى ينجح فى تعويض النقص الذى يعانيه بتنمية حواس أخرى كاللمس والسمع والشم .

ويشير أرنولد توينبى إلى أن ميدان الدراسة القابل للفهم بذاته هو المجتمع الذى يضم عددا من الجماعات ، ويضيف أن العوامل المؤثرة فى المجتمعات لم تكن قومية الطابع ولكنها صدرت عن أسباب أوسع مدى تؤثر على كل جزء من الأجزاء ، كما أن المجتمع الذى يضم هذه الأجزاء يجابه أثناء حياته مشكلات متتابعة تفرض على كل عضو فيه أن يحلها لنفسه على خير ما يستطيع وتعتبر كل مشكلة تحديا لعضو المجتمع تفرض عليه محنة يجتازها ، وتؤدى تلك السلسلة من المحن إلى تمايز أعضاء المجتمع بالتدريج بعضهم عن بعض[1] .

ولا يوافق توينبى على فكرة تقسيم التاريخ إلى ثلاثة عصور : قديمة ووسيطة وحديثة ، كما انتقد اعتناق بعض المؤرخين الغربيين الذين يؤمنون بالنظرية العرقية التى تعتبر الجنس النوردى ذا البشرة البيضاء والشعر الأصفر

---

(١) أرنولد توينبى : مختصر دراسة التاريخ ج ١ ص ٧ .

والعيون الزرقاء أسمى الأجناس ، كما استبعد القومية كوحدة للدراسة التاريخية ، وأهتم بحضارات العالم المختلفة ، فكان بذلك موضوعيا إلى جانب وصفه للحضارة اليهودية بأنها حضارة متحجرة .

كما يرفض أرنولد توينبى الحتمية التشاؤمية المتصلة بنظرية التعاقب الدورى للحضارات لدى شبنجلر ، لأن توينبى لايجدفى حركة التاريخ دورانا رتيبا كدوران العجلة ، ويرى توينبى أن موت الحضارات السابقة لم يكن قضاء وقدرا ، وإنما كان انتحارا ، وهو مصير الحضارة الغربية إذا قامت حرب عالمية ثالثة (١) .

ويرى أرنولد توينبى أن الحضارات العالمية مرت بثلاث مراحل هى :

أ - مرحلة مولد أو تكوين الحضارة : حيث يوضح توينبى نظرية التحدى والاستجابة فى مرحلة تكوين الحضارة ، حيث يؤمن بأن مولد الحضارة عملية خلق تتضمن تغييرات حتى فى عوامل الزمن نفسه ، وأن الصعوبات هى التى تحفز الانسان على العمل وبالتالى صنع تاريخه ، وأن الحضارة تتكون فى

---

(١) أرنولد توينبى : المرجع السابق ص ١٥

البيئة الصعبة غير المتيسرة لمعيشة الانسان ، وأن اليسر هو عدو الحضارة .

ب- مرحلة نمو الحضارة : حيث يجب أن يحدث النمو من خلال مسيرة تمضي بالمجتمع من تحد إلى إستجابة ثم إلى تحديات جديدة وإستجابات لهذا الجديد ، ومن أبرز معايير النمو الحضاري ازدياد سيطرة الإنسان على البيئة التي تحيط به بظروفها الطبيعية المختلفة ، ثم تطوير أسلوب معالجته لتلك الظروف حتى تكون صنوف الاستجابة نجاحا مقابل صنوف التحديات بالنجاح أيضا .

ويضيف أرنولد توينبي بأن النجاح المتولد بين كل تحد واستجابة هو التقدم الحضاري ، بمعنى أنه المحك الأمثل الذي يجعل من أية حضارة نامية صاحبة الإرادة في تقرير مصيرها ، وذلك عندما يتأتى لها الاستيعاب لبيئتها وعناصر تحدياتها وحقل صراعاتها (١).

كما يذكر أرنولد توينبي أن النمو الحضاري يتأتى على يد أفراد خلاقين أو على يد أقليات مبتكرة ، فهي التي تحدد نوعية الاستجابة الناجحة للتحديات لتمضي بالمجتمع قدما تجر

---

(١) إسحاق عبيد : المرجع السابق ص ١٣٤ .

من ورائها تلك الأغلبية الكسولة غير الخلاقة . إن النمو الحضارى هو ديناميكية الحياة ، وهى من فعل الأقلية النشطة ، أما بقية أفراد المجتمع من الخاملين فهم شركاء الملايين من أهل الكهف فى كل أركان الأرض ، ويجاهد الخلاقون لكى يجذبوا من ورائهم هؤلاء الكسالى لكى يلحق المجتمع بالموكب الحى[١].

جـ - مرحلة تدهور الحضارة وانهيارها : وفيها تتمثل أسباب انهيار الحضارة فى قصور الطاقة الإبداعية فى الأقلية الحاكمة ، وعزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقتها الابداعية ، وفقدان الوحدة الاجتماعية فى المجتمع بصفة عامة .

إن المجتمع فى حالة الانهيار يتشكل على النحو الآتى : -

- أقلية مسيطرة فقدت قدرتها على الابداع وأصبحت تحكم بالقهر .
- بروليتاريا داخلية ذليلة ولكنها عنيدة تتحين الفرصة للثورة .
- بروليتاريا خارجية انشقت عن المجتمع وتقاوم الاندماج فيه وتتحين الفرص للغزو .

---

(١) إسحاق عبيد : المرجع السابق ص ١٣٤ .

٩ - المدرسة شاملة الأسباب :

وتقوم هذه المدرسة على تفسير التاريخ تفسيرا متعددا للظاهرة التاريخية ، بمعنى النظر إلى الحادثة أو الظاهرة التاريخية في ضوء جميع العوامل والأسباب الحقيقية لها ، بحيث يراعى أثر التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية التى تركت بصماتها على شتى جوانب الحياة في المجتمع في كل مرحلة زمنية(١).

ومن رواد هذه المدرسة المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين Henri Pirenne الذى اهتم بما يعرف بالتاريخ الكلى ، وهو يعنى دراسة عصر معين أو حادثة أو فترة تاريخية محددة من كافة النواحى : السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى صورة كاملة(٢).

كما كان من رواد هذه المدرسة كل من لانجلواس Langlois ، وسينوبوس C.Seignobos، وبيورى J.B.Bury ، جورج ماكولى تريفليان George Macauly Trevelian

(١) د. أحمد حسين النقانى : المرجع السابق ص ٥٩ .
(٢) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ١٥٩ .

وجورج لبفيفر George lefevre ، وميتلاند Maitland وفينوجرادوف P.vinogradof ، ونامير L.B.Namier وغيرهم من المؤرخين الذين عالجوا التاريخ من واقع النظرية الكلية .

كما كان بيير رينوفان Pierre Renouvin من رواد هذه المدرسة أيضا فيذكر أن أحداث التاريخ السياسى ليست مجرد مظهر سطحى للواقع التاريخى والأهم هو جماع الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تدفع بالجماعات الانسانية إلى التصرف على هذا الوجه أو ذاك(١).

وهذه المدرسة تعالج قصور مدرسة المادية التاريخية ، حيث ترجع كل حادثة تاريخية إلى أسبابها الفعلية مهما تعددت وليس إلى سبب واحد أو عامل واحد كما تهتم مدرسة المادية التاريخية . فعلى سبيل المثال عند دراسة حادثة الثورة الفرنسية تهتم المدرسة الشاملة بابراز الأسباب المسئولة عن حدوثها اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وروحية ، وهو التفسير المنطقى والصحيح للحادثة التاريخية .

---

(١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ١٨٥

وهكذا ينتهى التطور فى المنهج التاريخى إلى عـدد مـــن المسلمات فيها الشمولية فى النظر التاريخى بين شتى العوامل المؤثرة فى الحركة التاريخية من فكر واقتصاد وحياة اجتماعية وعقيدية وسياسية وعسكرية ، فليس بالسياسة وحدها تصنـــــع الحياة ، بل كان للعلماء والصناع والزراع والتجار دور أهـم فى صناعة التيار الحضارى[١].

---

(١) د. عبد الحليم عويس : فقه التاريخ ص٣٧ ـ ٣٨ .

المراجع العربية

١- فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين - ترجمة صالح أحمد العلمي - مكتبة المثنى بغداد ١٩٦٣ ·
٢- د· نعمات أحمد فؤاد : أعيدوا كتابة التاريخ القاهرة دار الشروق ١٩٧٤م·
٣- مصطفى عبد الغني : علم التاريخ العربي الحاضر الغائب لماذا ؟ جريدة الأهرام الجمعة ١٩٨٥/٩/٢٧·
٤- على أدهم : تاريخ التاريخ القاهرة دار المعارف ١٩٧٧م ·
٥- عثمان موافى : منهج النقد التاريخي عند المسلمين والمنهج الأوروبي - مؤسسة الثقافة الجامعية بالاسكندرية ·
٦- جوزف هورس- ترجمة نسيب وهيبة الخازن -: قيمة التاريخ بيروت - مكتبة الحياة ١٩٦٤م·
٧- روبرت لأمون - ترجمة نادية القباني -: التاريخ - مطابع الأهرام التجارية ١٩٧٧م·
٨- فؤاد محمد شبل : توينبي مبتدع المنهج التاريخي - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥م·
٩- عبد الرحمن عبد الله الشيخ : المدخل الى علم التاريخ - الرياض - دار المريخ ١٩٨٤م·
١٠- د· حسن الساعاتي : علم الاجتماع الخلدوني - قواعد المنهج بيروت - دار النهضة العربية ١٩٨١م·
١١- محمد البهي : تهافت الفكر المادي التاريخي بين النظرية والتطبيق - مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٥م·
١٢- د· حسن عثمان · منهج البحث التاريخي - دار المعارف ١٩٨٤م·

١٣ - هرنشو - ترجمة عبد الحميد العبادى : علم التاريخ - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٧م.

١٤ - شارل سينوبوس - ترجمة عبد الرحمن بدوى : المدخل الى الدراسات التاريخية منشور فى كتاب النقد التاريخى دار النهضة المصرية ١٩٦٣م.

١٥ - كب ، هـ . أ . ترجمة حسن عثمان وآخرون : علم التاريخ ، دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٨١م.

١٦ - محمد عبد الغنى حسنى : علم التاريخ عند العرب : مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة ١٩٦١م.

١٧ - كولنجدود ، ر.ج . ترجمة محمد بكير خليل ومحمد عبد الوهاب خلاف : فكرة التاريخ . لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٨م.

١٨ - حكمت أبو زيد : التاريخ تعليمه وتعلمه - الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦١م.

١٩ - هنرى جونسون - ترجمة أبو الفتوح رضوان : تدريس التاريخ . النهضة العربية القاهرة ١٩٦٥م.

٢٠ - لمعى المطيعى : ارنولد توينبى - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧م.

٢١ - الخورى : التاريخ الحضارى عند أرنولد توينبى - دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠م.

٢٢ - محي الدين اسماعيل : توينبى منهج التأريخ وفلسفة التاريخ ، دار الشئون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦م.

٢٣ - أرنولد توينبى ترجمة نقولا زيادة : تاريخ البشرية ، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٢م.

٢٤ - أرنولد توينبى ترجمة فؤاد محمد شبل مراجعة شفيق غربال مختصر دراسة التاريخ .

٢٥ - أرنولد توينبى ترجمة أحمد محمود سليمان مراجعة د. محمد أنيس : الحرب والمدنية دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٤م.

٢٦ - أرنولد توينبى ترجمة رمزى عبده مراجعة د.محمد صقر خفاجة : تاريخ الحضارة الهلينية مكتبة الانجلو المصرية القاهرة .

٢٧ - أموالد شبنجلر ترجمة أحمد الشيبانى : تدهور الحضارة الغربية دار مكتبة الحياة ببيروت.

٢٨ - د. عبد الرحمن بدوى : اشبنجلر / مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٥م.

٢٩ - تشايلد جوردون ترجمة عدلى برسوم : التاريخ ، الدار المصرية للكتب.

٣٠ - أوغسطين ترجمة تزمان البرموس : اعترافات القديس أوغسطين - النهضة ١٩٥٣م.

٣١ - شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، القاهرة ١٣٤٩هـ .

٣٢ - محمود بن أحمد الزنجانى : تهذيب الصحاح .

٣٣ - عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار القاهرة ١٩٥٨م.

٣٤ - د. عبد الحميد السيد : التاريخ فى التعليم الثانوى القاهرة ١٩٦٢م.

٣٥ - آلبان ويدجرى ترجمة : التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبى ، القاهرة ١٩٧٢م.

٣٦ - عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة . بيروت ١٩٧٨م.

٣٧ - د. أحمد محمود صبحي : فى فلسفة التاريخ ، الاسكندرية د.ت.

٣٨ - د. زينب الخضيرى : فلسفة التاريخ عند ابن خلدون ، القاهرة ١٩٨٢م.

٣٩ - د. أحمد حسين اللقانى : اتجاهات فى تدريس التاريخ القاهرة ١٩٧٩م.

٤٠ - محمد رشاد خليل : المنهج الاسلامى لدراسة التاريخ وتفسيرة القاهرة ١٩٨٤م.

٤١ - محمد عبى محمد وعلى عبد المعطى: السياسة بين النظرية والتطبيق ، الاسكندرية ١٩٨٤م.

٤٢ - سيد قطب : خصائص التصور الاسلامى ومقوماته . القاهرة ١٩٨٣م.

٤٣ - عمارة نجيب : الانسان فى ظل المذاهب الوضعية ، الماركسية دراسة وصفية تحليلية ناقدة ، القاهرة ١٩٧٦م.

٤٤ - د. مصطفى محمود : الماركسية والاسلام ، القاهرة ١٩٧٧م.

٤٥ - اميل رييه ترجمة محمود قاسم ومحمد القصاص : اتجاهات فى الفلسفة المعاصرة ، بيروت ١٩٥٦م.

٤٦ - د. مصطفى الخشاب : النظريات والمذاهب السياسية القاهرة ١٩٥٧م.

٤٧ - د. عبد الحليم عويس : فقه التاريخ ، القاهرة ١٩٨٦م.

٤٨ - د. عبد الحليم عويس : تفسير التاريخ علم اسلامى القاهرة ١٩٨٦م.

٤٩ - د. اسحاق عبيد : معرفة الماضى من هيرودوت الى توينبى القاهرة ١٩٨١م.

٥٠ - ويل ديوارنت ترجمة أحمد الشيباني : قصة الفلسفة من سقراط الى جون ديوى ، بيروت د ٠ ت ٠

٥١ - د٠ شوقى عطا الله الجمل : علم التاريخ ، القاهرة ١٩٨٢م٠

٥٢ - د٠ محمد فريد حجاب : الفلسفة السياسية عند اخوان الصفا ٠ القاهرة ١٩٨٢م٠

٥٣ - د٠ عبد اللطيف محمد العبد : الانسان فى فكر اخوان الصفا ٠ القاهرة ١٩٧٦م٠

٥٤ - مجلة عالم الفكر : العدد الأول من المجلد الخامس أبريل - يونيو ١٩٧٤م٠

- د٠ حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون ٠
- محمد الطالبى : التاريخ ومشاكل اليوم والغد ٠
- د٠ محمد عواد حسين : صناعة التاريخ ٠
- د٠ عبد الرحمن بدوى : أحدث النظريات فى فلسفة التاريخ٠
- د٠ شاكر مصطفى : التاريخ هل هو علم ؟

1- Mays,Pomela:Why teach History?,London, University of London Press lted.1974.
2- Kochhar,S.K.:The Teachingh of History.
3- Tynbee,A.Mankind and Mother Earth,Landon 1978.
4- Carr,E.A:What is History,London,1978.
5- Oman,chr.:On the writing of History,London 1939.
6- Wilkins,B.T.:Has History any Meaning ? London 1975.
7- Cohen, G.A.:Karl Marx's theary of History, London 1980
8- Hegel,G.W.F.:The Philosophy of History, London,1956.